

آليات تطبيق المنهج التداولي على النص التراثي

د/هاجر مدقن.

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة ورقلة (الجزائر)

- **مدخل:**

ما يزال النص التراثي قطبا مغناطيسيا تنجذب إليه جهود الدارسين على اختلاف مناهج دراساتهم، وتراوحها بين الجدة والقدم، وذلك لما لهذه النصوص من خصائص لغوية وقيمية تشكل نسيجاً متكاملًا ومتجدداً؛ بحيث لا تجدد دراسة ولا يبرز على ساحات المناهج والتوجهات الجديدة منهج إلا ووجد له في هذه النصوص ضالة.

ويعتبر المنهج التداولي الحديث - على تمنعه على الضبط والتجديد على مستوى آلياته التحليلية - وسيلة متكاملة ومتداخلة الإجراءات بشكل "عبر تخصصي"، يمنحه ثراء على مستوى الإجراء والنتيجة، ولا سيما على مستوى النصوص التراثية لما فيها من مستويات سياقية مقامية، وتشخيصية، وتوفرها على مساحة شاسعة من الطبقات الكلامية "مستويات الأفعال الكلامية" على اعتبار أن هذه الأخيرة مبحث مهم من المباحث التداولية.

وسيكون هدف هذه المداخلة إن شاء الله، بسط أهم آليات مقارنة النص التراثي في ضوء المنهج التداولي الحديث.

1- التداولية بين النظرية والمنهج:

تناولت التداولية كدرس جديد بحوث كثيرة، وبتعددتها تعددت تعاريفها، ومن بينها؛ أنها: «مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية (...)»، وهي كذلك الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية والحديثة والبشرية»¹. ورصد لها تعريف آخر، وهو أنها: «تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب، وتنظر في الوسميات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التخاطبي»². وهي كذلك: «الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل»³.

هذه التعددية في المفاهيم توقع التداولية في مفترق طرق الأبحاث اللسانية والفلسفية والتواصلية عامة، ما يجعلها درسا غزيرا لا يمتلك حدودا واضحة⁴، وهذا التوسع واللامحدودية، جعلها تتداخل واختصاصات أخرى، أو تحقق بذلك ما يسمى بـ: "العبر تخصصية"، التي أغنتها إجرائيا بتداخلها مع معارف واختصاصات أخرى، وهذا الغنى «ساهم في حل إشكاليات مطروحة، وإن تسبب في إعاقة ضبط مفاهيمها»⁵. فالتداولية لا تنتمي إلى أي من مستويات الدرس اللغوي صوتيا كان أم صرفيا أم نحويا أم دلاليا، لذلك فالأخطاء التداولية

¹ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2007، ص: 18.

² المرجع نفسه، ص: 18، 19.

³ نفسه، ص: 19.

⁴ فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ت: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، دم ط، دط، 1985، ص: 07.

⁵ عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003م، ص: 07.

جامعة قاصري مبراح - ورقة - (الملتقى الوطني للدراسات في اللغة والأدب يوم 26-27 أكتوبر 2011)

لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفونولوجية أو النحوية أو الدلالية، وهي ليست مستوى يضاف إلى هذه المستويات؛ لأن كلا منها يختص بجانب محدد ومتماusk من جوانب اللغة، وله أنماطه التجريدية، ووحداته التحليلية، ولا كذلك التداولية، فهي لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة، بل من الممكن أن تستوعبها جميعا، وليس لها أنماط تجريدية ولا وحدات تحليل.

وهي كذلك لا تنضوي تحت علم من العلوم التي لها علاقة باللغة على تداخلها معها في بعض جوانب الدرس ك: علم الدلالة: الذي يشاركها دراسة المعنى، وعلم اللغة الاجتماعي: الذي تتشارك معه في تبين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث وموضوعه ومرتبة كل من المتكلم والسامع وجنسه، وأثر السياق غير اللغوي في اختيار السمات اللغوية وتنوعاتها، وعلم اللغة النفسي: الذي يشارك التداولية الاهتمام بقدرات المشاركين التي تؤثر في أدائهم، مثل: الانتباه والذاكرة والشخصية، وتحليل الخطاب: ويشتركان في الاهتمام أساسا بتحليل الحوار، ويقتسمان عددا من المفاهيم الفلسفية واللغوية، كالطريقة التي توزع بها المعلومات في جمل أو نصوص، والعناصر الإشارية، والمبادئ الحوارية. هذا الاتساع والتداخل حدا بكثير من الدارسين إلى القول بافتقارها إلى موضوعات مترابطة ووحدات تحليل خاصة بها¹.

لكن هذا لم يمنع دارسين آخرين من محاولة تحديد مجالات تطبيقها، ولنقل مجالات مقارباتها. فالدكتور "صلاح فضل"، في كتابه: «بلاغة الخطاب وعلم النص»، في مبحث: "التحليل التداولي للخطاب"، أشار إلى أن المهم في التحليل التداولي هو الخطاب وفاعله؛ حيث يعنى التداوليون بالاقتراب من الخطاب كموضوع خارجي، أو شيء يفترض وجود فاعل منتج له، وعلاقة حوارية مخاطب أو مرسل إليه. ويكون الاهتمام بالفاعل الذي نعرفه فحسب من خلال خطابه؛ أي بالكيفية التي يقدم بها نفسه من جانب، وباعتباره مسئولا عن مجموعة من العمليات الإجرائية على مدار النص من جانب آخر.

فعلى التحليل النصي للقول أن يشمل كل ما يشير إليه النص من موقف الفاعل الداخلي اتجاه قوله، وبهذا فإن النص يقدم دائما باعتباره (موسوما *marqué*) أو (غير موسوم) بطريقة شخصية؛ أي أنه يتصل بفاعل يتجلى فيه معبرا عن رأيه أو وجهة نظره، مشيرا إلى تجربة أو حدث متعلق به ذاته، وعندئذ يصبح موسوما، أو متصلا بوقائع ومعارف موضوعية بعيدة عن القائل، وعندئذ يكون غير موسوم. هذان الوضعان الأساسيان للخطاب بكل ما يدخلهما من تعديلات وتداخلات يتجلبان نصيا من خلال العوامل التالية:

- مؤشرات الشخص والمكان والزمان.

- كفاءات القول التي تحدده، مثل موقف التأكد واليقين أو الشك والاحتمال.

1 - ينظر: محمد مصطفى أبو الشوارب، في اللغة والأدب، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دط، 2003م، (بحث: الاتجاه التداولي في البحث اللغوي المعاصر، للدكتور: محمود نخلة).

- مؤشرات الموقف التي لا تتصل بفعل القول ذاته، وإنما بموقف القائل مما يقوله، ويدخل في ذلك تلك العناصر اللغوية الذاتية أو الخارجية التي تحدد أحد الموقفين¹.

ونلاحظ هنا أن ما قدمه "صلاح فضل"، لا يبعد كثيرا عما أشار إليه رواد التنظير للتداولية، ومن بينهم "أرمينكو"، التي تشير إلى كثير مما ورد لدى "صلاح فضل"، ضمن مكونات المقاربة التداولية التي عالجتها انطلاقا من المستويات الخمس التي صنفها وفق أهم نتائج الجهود التي نظرت للبحث التداولي على اختلاف الخلفيات والمرجعيات المعرفية (السيكو- سوسيو- لوجية، اللسانية، البلاغية الجديدة، المنطقية، الفلسفية)، ولا سيما المستويات: الثاني والثالث والرابع².

2- المقاربة التداولية:

إن مقارنة بين مفهوم التواصل والتداولية تفضي إلى أن موضوعها - التداولية - هو الإنسان نفسه وهو يباشر أدواره الاجتماعية. وهذه الأدوار تنعكس في مختلف السياقات التي تطبع الخطاب الذي ينتجه. والمقاربة التداولية من شأنها تحديد هذه السياقات؛ كونها - المقاربة التداولية - «اقترب» له جانب "الخطوة الأولى، الابتعاد"....، وهي "سياقية" لأن مفهوم السياق هو أحسن ما يسم هذه الطوبيقا³.

وبهذا يكون مجال المقاربة محددًا في ما وراء البنية النصية، متجاوزة النص كبنية مغلقة، لا تحيل إلا على ذاتها، وتستند في تشكيلها والتحامها وتماسكها على إمكانياتها وطاقاتها الداخلية الصوتية والصرفية والتركيبية، إلى الخطاب كبنية منفتحة على سياقات خارجية في علاقة تفاعلية مستمرة⁴.

3- آليات المقاربة التداولية للنص التراثي:

تطالعنا الخزانة التراثية العربية بأنماط نصية لا تختلف على مستوى الجنس فقط: الشعر والنثر، بل على مستوى البناء النصي للجنس الواحد.

وسيكون استقراءنا للنص التراثي في هذه المداخل انطلاقا من النصوص النثرية، وتحديدًا النصوص (القصصية الخرافية المثلية)، والتي يمثلها خير تمثيل في هذا المجال، كتاب: «كليلة ودمنة»، «لابن المقفع».

من يطلع على الحكايا الخرافية في هذا الكتاب تتبادر إلى ذهنه أطراف متشاكلة ومتباينة من القضايا، والتي يمكن لكل واحدة منها أن تنفرد ببحث خاص يتأتى لصاحبه أن يقول فيه ما يقول؛ إن كان على مستوى

1 - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، مصر، مكتبة ناشرون، لبنان، ط1، 1996، ص ص: 125، 126.

² فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص ص: 4، 5.

³ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص: 185. ❖ الطوبيقا: علم المواضع، من الإغريقية القديمة (موضع = topos)، وهذا الاستعمال يعود إلى أرسطو، الطوبيقا: نظرية المقولات العامة. (المترجم).

⁴ محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م، ص: 4.

جامعة قاصري مبراح - ورقلة - (الملتقى الوطني للدراسات والبحوث في دراسة اللغة والأدب يوم 26-27 أكتوبر 2011)

نوع النص: (القصصي) (الحكائي) (الرمزي)، أو قضية النص: (الإصلاح السياسي ونصح الملوك)، أو ما يسمى بـ: (الأدب السلطانية)، أو بناء النص: (المثلي الحجاجي)، والذي نفهم من ورائه أن المثل لا يساق إلا حجة، وهذا هو الطابع الكلي لكتاب: «كليلة ودمنة».

لكننا اختصارا للوقت والجهد، سنحاول مقارنة نصوص هذا الكتاب على مستويين:

- أ- مستوى بنية الخطاب الداخلية (العلاقات الداخلية)، انطلاقا من رصد الأفعال الإنجازية: المباشرة وغير المباشرة.
- ب- مستوى بنية الخطاب الخارجية؛ أي التفاعلات النصية التي تكون على مستوى تفاعل ذوات الخطاب مع المحيط الخطابى، أو القيمة الخارجية، والعلاقات التي تتجسد في كل من: "التشخيص" و"المقام".

1. البنية الداخلية للخطاب:

أ- الأفعال الإنجازية:

يعرف "أوستن AUSTIN" الفعل الإنجازي بأنه: « ما نقوم به خلال كلامنا »¹، بمعنى الآثار التي ينجزها كلامنا، والتي تخالف الفهم المجرد لهذا الكلام، أي ارتباط الكلام أو القول بالحدث مباشرة كما يشير " فان دايك VANDIJK" الذي يجعل مفهوم الفعل الإنجازي في علاقة وثيقة مع مفهوم الحدث وقد يكشف تعريف موجز بديهي لفظ الفعل هذه العلاقة: فالفعل هو كل حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني². ومن شروط إنجازية الأفعال اقتضاؤها لشروط وأحوال ذهنية سابقة، ولاسيما القصدية، «لأن أحوال حصول الأفعال المنجزة عن قصد هي ما يمكن أن توصف بكونها أفعالا إنجازية»³. ولأن التداولية تتلخص في علاقة العلامات اللغوية بمستخدميها، فهي تمنح هذه الأفعال إطارا تواصليا ضمن بنية خطابية قابلة للتأويل؛ أي ما يسمى بالتأويل التداولي للعبارات⁴.

يحيلنا لفظ (التداولية) إحالة مباشرة إلى نظرية أفعال الكلام، وهذه النظرية ترتبط بقطين اثنين: " أوستن Austin" و" سيرل Searle" الذين قعدا لها عن طريق محاولتهما لتقسيم الجمل، أو بتقسيم "أوستن Austin" للجملة الخبرية إلى: وصفية (constative)، وإنشائية (performative) ثم عدوله عن هذا التقسيم انطلاقا من تساؤله:

¹ فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص: 61.

² فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ت: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، دط، 2000م، ص: 228.

³ فان دايك، نفسه، ص: 235.

⁴ نفسه، ص: 257.

>> كم معنى هناك على أساسه يكون قول شيء هو نفسه فعل شيء ، أو يكون متضمنا في قولنا شيئا ، فعلنا لشيء معين ، أو يكون بواسطة قولنا شيئا فعلنا لشيء ما << ¹ .

ومنه ميّز " أوستن Austin " أفعالا ثلاثة ترتبط بالقول (locution) :

أ - فعل القول LOCUTIONARY ACT : وهو >> إطلاق الألفاظ على صورة جملة مفيدة ذات بناء نحوي سليم مع تحديد مالها من معنى (Sense) ومشار إليه (Réference) << ، وهذا الفعل يقع دائما مع كل قول ، ومع إعطائه معنى ، يبقى غير كاف لإدراكنا أبعاده ، كقولنا :
- إنها ستمطر .

مع فهمنا الكلي لمعناها ، فلا ندري إن كانت خبرا أو تحذيرا من عاقبة الخروج ، أو أمرا بحمل المظلة ؛ إلخ .
لذا وجد " أوستن " ضرورة إرفاق فعل القول بـ :

ب - فعل متضمّن في القول ILLOCUTIONARY ACT : هذا الفعل يشتمل على أمر زائد هو (القوة Force) التي للقول ، فيقال للجملة السابقة في موضع أنّ لها قوّة الخبر ، وأخرى أنّ لها قوّة التحذير ، وقوة الأمر في ثالث ، وهكذا . لذا اقترح " أوستن " تسمية النظرية القائلة بتنوّع وظائف اللّغة نظرية ((القوى المتضمّنة في القول ILLOCUTIONARY FORCE)) ومع القيام بالفعل (أ) و() ، ينشأ فعل ثالث هو التسبب في نشوء آثار في مشاعر أو أفكار أو أفعال المخاطب ، أو المتكلم ، أو غيرهما ، على نحو كان الفاعل ؛ أي المتكلم قد عمد إلى إيجاده ، من أمثله : الإقناع ، التّضليل ، التّشبيط ، ويسمّى هذا الفعل :

ج - الفعل الناتج عن القول أو الفعل بواسطة القول perlocutionary Act ² .

وهذا التّحديد لمعاني أفعال الكلام ومقاصدها ، يجعله " فان دايك Van Dijk " غرضا رئيسيا للتداولية في كتابه : «النص والسياق ، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي» ؛
>> التّحليل السليم لأفعال الكلام هو الغرض الرئيسي للتداولية ، لأنّه لا يمكن أن يتمّ بغير فهم مسبق لمعنى الفعل أو التّصرف << ³ .

وهو يلحّ على ما يسمّى بإجازية الفعل أو إعطائه تأويلا تداوليا كمهمّة رئيسة أخرى ، إضافة إلى وضعه في سياق معيّن أو موقف من المواقف : >> المهمة الرئيسية للتداولية هي تحويل ضروب الخطاب (الجمل) إلى أفعال منجزة ، وعملية تحويل الخطاب إلى أفعال منجزة يمكن أن تسمى أيضا تأويلا تداوليا للعبارات ، والمهمّة الثانية هي تنزيل هذه الأفعال في موقف معين ، وصياغة الشّروط التي تنصّ على نجاح هذه العبارات في أي موقف من المواقف << ⁴ .

¹ طالب سيد هاشم الطبطبائي ، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب ، مطبوعات جامعة الكويت ، 1994م ، ص : 7 .

² طالب سيد هاشم الطبطبائي ، نظرية الأفعال الكلامية ، ص : 8 ، 9 .

³ فان دايك ، النص والسياق ، ص : 227 .

⁴ فان دايك ، النص والسياق ، ص ، ص : 256 ، 257 .

وتنقسم الأفعال الإنجازية في الخطاب إلى: أفعال مباشرة وأفعال غير مباشرة.

1- الأفعال المباشرة:

يكون الفعل مباشرا إذا تطابق القول "الفعل Verbe وحكمة Mode نوع الجملة" مع "الإنشاء illocution"، مثل:

أعلن عن اختتام فعاليات الملتقى.

أمرك بالمغادرة.

أسدل الستائر.

أين وجدت البطاقة؟

وهي أفعال متواضع عليها، وتتداول غالبا بمعانيها الأصلية؛ أي يطابق لفظها معناها مباشرة. وهي تحيل إلى أربعة أفعال في الوقت نفسه:

1 - Acte d'énonciation . فعل القول .

2- Acte propositionnel . فعل الإسناد .

3- Acte performatif . فعل الإنشاء .

4- Acte perlocutif . فعل التأثير .¹

ومن أمثلة ذلك في كتاب < كليلة ودمنة > :

قالت السلحفاة مخاطبة الجرذ: « اعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن هو لم يتداو به لم يفنه علمه، ولا يجد راحة ولا خفة »².

أ- فعل القول: وهو فعل التلفظ بالكلمات والجملة: اعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل.

ب- فعل الإسناد: يربط الصلة بين المرسل والمرسل إليه؛ أي إسناد معنى القول إلى الطرف الآخر: أنت "اعلم" أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل. حيث تم إسناد الفعل إلى المفرد المخاطب (الجرذ).

ت- فعل الإنشاء: يتحقق الفعل الإنشائي في القصد المتضمن في القول، إن كان نصحا أو عرضا أو تقييما وحكما... والقصد المتحقق في هذا القول: هو تقديم السلحفاة النصيحة إلى صديقها الجرذ؛ بأن تمام الكلام مرهون بتمام العمل.

ج- فعل التأثير: يتوقف فعل التأثير على المعنى الذي يعطى للقول، وفي المثال إضافة إلى الطرح، ومدى وقوف المتلقي على معناه منفردا، هناك حجة ملحققة تزيد في الإيضاح، وتبلغ من التأثير حد الإقناع:

¹ الجليلي دالاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد بجاتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م، ص: 25.

² ابن المقفع، كليلة ودمنة، تحقيق: لويس شيخو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط 14، 1994 م، ص: 154.

الطرح:	الحجة:
اعلم أن حسن الكلام لا يكون إلا بحسن العمل.	وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن هو لم يتداو به لم يغنه علمه ، ولا يجد راحة ولا خفة .

2- الأفعال غير المباشرة :

هو استخدام المتكلم أو المخاطب لعبارة إستعارية و أشكال قول مجازية بدل استخدام المعاني الحقيقية والجره بما يريد الإدلاء به ؛ أي إجبار المتلقي على الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسنده المتكلم إلى قوله .

كقولنا : كلمته سيف .

إنّ المستمع لهذه العبارة يلغى وجوبا المعنى الحقيقي ؛ أي كون الكلمة سيف (نوع من الأسلحة) ، ولا يحتفظ إلا بالمعنى المجازي المراد ؛ وهو الصرامة و الجدية .

وفد أطلق " غرايس Grice " مفهوم : " حكم الحديث Maximes Conversationnelles " على المقاصد غير المباشرة للتعامل والتواصل ، و من بينها الكلام غير المباشر ¹ .

إن نصوص كتاب < كليلة ودمنة > نصوص مجازية ؛ اتخذت اللامباشرة منهجا ، إن كان في نوعها أو شخصها أو بناء خطابها ، حيث اعتمد صاحبه التشابيه المتنوعة كمقدمات للمعنى الذي تسوقه الشخصية المتكلمة ؛ والذي تختمه بمثل تحتج به ، والتمثيل هنا يكون أعلى قيمة من مجرد ربط علاقات مشابهة بسيطة إلى ما هو أكثر تعقيدا وبعدا ؛ « فهو طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك ، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما ، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبدا ، ومن ثمة اعتبر عاملا أساسيا في عملية الإبداع يستعمل في الحجاج (فهو قريب من الحجاج المقارني) دون أن تكون له علاقة بالمنطق الصوري ، حيث لا يطرح معادلة صورية خالصة ، ولكنه ينطلق من التجربة بهدف إفهام الفكرة ، أو العمل على أن تكون الفكرة مقبولة ، وذلك بنقلها من مجال إلى مجال مغاير ، جريا على مبدأ الاستعارة « ² . ومثاله : في مثل البوم والغربان ، وهو مثل العدو المتظاهر باللين والمسامحة ، فقبل أن يسرد الغراب مثلا لهذا المثل مهد له بكلام حكمي فيه من التشبيهات القريبة ما يبسط معنى المثل الأكبر الذي سيتلو كلامه ويكون بمثابة التشبيه الأكثر تعقيدا ؛ « ... ذلك ولا بد لصاحب السر من مستشار مأمون يفضي إليه بسره ويعاونه على الرأي فإن المستشار وإن كان أفضل من المستشار رأيا فإنه يزداد برأيه رأيا كما تزداد النار بالودك ضوعا . وعلى المستشار موافقة المستشار على صواب ما يرى والرفق في تبصيره خطأ إن أتى به وتقليب الرأي فيما يشكل حتى يتفق شأنهما . فإذا لم يكن المستشار كذلك فهو على المستشار مع عدوه . كالرجل

¹ الجليلي دالاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ص : 31 .

² - عبد السلام عشير ، عندما تتواصل نغير ، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، دط ، 2006 ، ص : 97 .

جامعة فاصري مباح - ورقة - (المُلتقى الوطني للدراسات والبحوث في دراسة اللغة والأدب يوم 26 - 27 أكتوبر 2011

الذي يرقى الشيطان ليرسله على الإنسان فإذا لم يحكم الرقية أضحي هو أسيرا للشيطان...»¹، وهكذا إلى أن يتهياً لضرب المثل الذي مهد له بهذه التشبيهات.

1- البنية الخارجية للخطاب :

وستكون دراستها انطلاقاً من الخاصية الحوارية للخطاب الحجاجي التداولي في هذا الكتاب، و"الحوارية" مكوّن أساس لكلّ كلام، وهي تتوزّع كخطاب بين متلفّظين فأكثر، وكونها من مستويات تجلّي البعد التداولي للخطاب الحجاجي، فهي تقوم على ركيزتين تختصران كثيراً من الخصائص الخطابية لتداوليّة الحجاج في أي مستوى من مستويات الكتابة خاصّة، كونها تفسح مجالاً أوسع لاستثمار المعطيات المتاحة للخطاب، وهاتان الركيزتان هما: "التشخيص" و"المقام".

أ- التشخيص :

التشخيص لدى "بانفنيست" خاصيّة تلفظية، وأهو الإطار التشخيصي للتلفظ؛ لاقتضاء التّلفظ كبنية حوارية لصورتين هما: مصدر التّلفظ وهدفه². وهو نوع من أنواع الحجاج، سمّاه "طه عبد الرحمن": "الحجاج التّقويمي"، الذي يعمد المستدل فيه إلى تجريد ذات ثانية من ذاته ينزلها منزلة المعارض على قوله، يستنبط من فعل التّلقّي لديها كلّ ردود الفعل المحتملة: استفسارات، واعتراضات، ويستحضر بهذا مختلف الأجوبة عليها ومستكشفاً في الوقت نفسه إمكانات تقبّلها واقتناع المخاطب بها³. والتشخيص عند "بيرلمان" دراسة لطبيعة العقول تستدعي أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها وحيازة انسجامها الإيجابي L'adition positive والتحامها مع الطّرح المعارض. وهذه الأمور التّفسيية والاجتماعية تفقد بغيابها الحجاج تأثيره وغايته⁴؛ لذا فهذا النوع من الحوارات الإقناعية يبرز على صورتين: صريحة وضمنية، و الحوار الضمني هو النوع الذي انبنى عليه "التشخيص" في كتاب <كليلة ودمنة>، حيث جرّد "ابن المقفع" من نفسه شخوصاً كثيرة اقتسمت أفكاره وآراءه مجسدة في الشخوص التي اختارها بطلّة في كتابه، والتي تنوعت بين إنسانية وحيوانية، وإن كان الحيوان أكثر حضوراً وتأطيراً لفحوى الكتاب، فكل شخصية من هذه الشخوص تشكل رمزا سياسياً حاضراً، أو هي تشخيص مادي لقيمة مجردة «فها هنا لا يكتبني المستدلّ بالنظر في فعل إلقاء الحجّة إلى المخاطب واقفاً عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط، بل يتعدى ذلك إلى التّظر في فعل التّلقّي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يلقي، فيبني أدلّته أيضاً على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به، مستبقاً استفساراته واعتراضاته ومستحضراً مختلف الأجوبة عليها ومستكشفاً إمكانات تقبّلها واقتناع المخاطب بها. وهكذا، فإنّ المستدل يتعاطى لتقويم دليله بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه

¹ ابن المقفع، كليلة ودمنة، ص: 163.

² حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي ((عناصر استقصاء نظري)) مجلة عالم الفكر، الكويت، ع1، يوليو، سبتمبر، 2001، ص: 104.

³ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1998م، ص: 228.

⁴ محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان، وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، الكويت، ع2، يناير، مارس، 2000م

ص: 68.

، ومراعيًا فيه كل مستلزمات الخطابية من قيود تواصلية وحدود تعاملية، حتى كأنه عيّن المستدلّ له في الاعتراض على نفسه»¹.

فالمخاطب المتخيّل هو دائماً بالنسبة لمن يجاجج عبارة عن "بنية ممنهجة" نوعاً ما؛ أي أنه يوطّر القول، ويجعله ملائماً لظروفه الوارد فيها. فهذا المحاور المتوهم الذي على الخطيب تجريده من نفسه، أو من المقام، يعد خطةً منهجيةً ضروريةً من صنع الخطيب ذاته، وبالتالي ممكن لنا القول إنه داخل في إطار العلاقة بين الجوانب النفسية البحتة بالأطر الحجاجية.

والمتكلم (خطيباً أو كاتباً) لا يستطيع تخيّل هذا المخاطب ما لم يكن على دراية عميقة بأحوال المخاطبين الرأهنة، وبموروثهم الثقافي والحضاري، وبمهوم مستقبلهم. ثم إنّ على المتكلم الحذر في تخيّل هذا المخاطب، لأن الخطأ في التقدير قد تنجم عنه ردّة فعل عكسية تؤدي بمسار البناء الحجاجي بكامله.

فهذا المخاطب هو الحامل للخصائص الجماعية الكبرى التي يتقاطع فيها السواد الأعظم، إنّه بعبارة أخرى: الثقافة والحضارة والمجتمع والنصوص الخلفية الثأوية في اللاوعي الجماعي الموجهة للوعي ولفهم وللتعامل داخل الزمرة الاجتماعية الخاصة، وبالتالي يكون الخطأ في رسم صورته الفعلية مؤدياً حتماً إلى نتائج عكسية تماماً².

وفكرة المخاطب المتخيّل أو ما يسمى بـ (الخلق)، أخذت تجليات عدة عند "بيرلمان":

- 1- المخاطب الكوني (من دون خصائص أو معالم محددة أي عاماً شاملاً).
- 2- المخاطب المحدد التابع من مكونات مقام القول وإمكاناته التي على المتكلم - أيًا كان - الإجابة في استغلالها والاعتدال في توظيفها.
- 3- المخاطب التابع من "الفاعل" أي المرسل للقول ذاته، وجزءاً من تجريداته وطموحاته³.

ب- المقام:

يقرن "صلاح فضل" مصطلح المقام بالسياق في التداولية، وذلك لأن التداولية >> تستخدم مفهوماً تجريدياً يدلّ على الموقف التواصلي هو "السياق". فالتداولية إذن تعني بالشروط والقواعد اللازمة للملائمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به؛ أي للعلاقة بين النص والسياق <<⁴.

¹ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 228.

² محمد سالم ولد محمد الأمين مفهوم الحجاج عند بيرلمان، ص: 68، 69.

³ نفسه، ص: 79.

⁴ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 25.

جامعة قاصدي مبراح - ورقلة - (الملتقى الوطني للدراسات والبحوث في دراسة اللغة والأدب يوم 26-27 أكتوبر 2011)

ولا يشمل السياق من الموقف إلا العناصر التي تحدد بنية النص و تؤدي إلى تفسيره ، وهذا يجعل من التداولية علما يعنى بالعلاقة بين النص و عناصر الموقف التواصلية المرتبطة به بشكل منظم ، أو ما يطلق عليه : سياق النص . وهذا المفهوم التداولي يجيل على ما كان يشار إليه في البلاغة القديمة بعبارة : "مقتضى الحال" ، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية : "لكل مقام مقال" .

إن دراسة المقام كمكون حوارى تقتضى دراسة "النظام القولي" بما يضمه من قرائن ، كونها وسيلة من وسائل التحليل الأساسية ، وهذه القرائن تعمل على كشف مجموع القيم المكونة للمقام أو مجموع المقامات الموزعة على مستوى النص . وقرائن الدراسة تتمثل في :

أولا : قرائن القول : تظهر وضعية المتكلم على مستوى اللغة من خلال :

1- السمات الذاتية : تنقسم إلى : أسماء الإشارة : تحيلنا على المتخاطبين ؛ أي ضمائر الشخص الأول (المرسل) ، والشخص الثاني (المتلقي) . نظام الزمن : أو علامات التحديد الزمني : زمن الإلقاء (الحكى) ، وزمن وقوع الأحداث .

2- المخصصات : وهي العبارات التي تحيل إلى درجة ثقة المتكلم فيما سيقول ، وهي نفسها التي يؤثر بها في سامعه .

3- الأفعال الذاتية : هي الأفعال أو الصفات التي يظهر بها المتكلم أو صاحب النص رد فعله بألفاظ شعورية أو تقييمية لشيء ما .

ثانيا : قرائن التنظيم : الغرض الأول والأخير منها هو تبيان وتوضيح مدى تناسق الأقوال الحجج وترتيبها على صعيدين :

1- الصعيد الخارجي : يظهر في شكل تقديم النص ، ومن خلال العناوين خاصة .

2- الصعيد الداخلي : يكون فيه التركيز على " الروابط الحجاجية " ، وعلى كل ما يدل على مناحي الحجاج ، كعبارات "التقديم" ، و"الانتقال" ، و"الاختتام" .

ثالثا : قرائن المعجم : وهي مفردات النص الحجاجي الناتجة عن التّقابل في وجهات النّظر ، وتكون هذه المفردات متضادة نظرا لكونها تعكس تضادا في الأطروحات ، يرتبط بمختلف خصائص الشخصيات ، كما تعكس أيضا موقف المؤلف من شخصه ، وذلك بأن يجعل لكل منها حقا دلاليا خاصا بها يتماشى مع حالتها ومواقفها ، وواقعها المحيط بها .

- خاتمة :

إن المقاربة التداولية للنص التراثي تعد ضربا من المجازفة تتأتى خطورتها من اللامنهجية التي تتسم بها التداولية وانعدام الآليات التحليلية الموحدة التي يطمئن إليها الدارس ، والتي تخرجها من باب المنهج إلى باب المقاربة . كما أن للنص التراثي خصوصيته البنائية والموضوعية كذلك ، فنجدنا أمام كل نص تعلقونا حيرة

جامعة قاصري مباح - ورقة - (الملتقى الوطني للدراسات في دراسة اللغة والأدب يوم 26-27 أكتوبر 2011
كبيرة: بأي المناهج نقاربه؟ وإذا وفقنا إلى اختيار المنهج أو نوع الدراسة، تبرز عشرة خصوصية النص أمامنا
التي تجعلنا أخيراً لا نؤمن بتوحد آليات التحليل، بل تعزز مبدأ المقاربة لدينا.
- المصادر:

1. عبد الله بن المقفع، كلية ودمنة، تحقيق: لويس شيخو، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط: 14، 1994.

- المراجع:

2. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2007.

3. فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ت: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د م ط، دط، 1985.

4. عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،
2003.

5. محمد مصطفى أبو الشوارب، في اللغة والأدب، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دط،
2003م، (بحث: الاتجاه التداولي في البحث اللغوي المعاصر، للدكتور: محمود نحلة).

6. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، مصر، مكتبة
ناشرون، لبنان، ط1، 1996.

7. محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة للنشر
والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م.

8. فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني،
إفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، دط، 2000م.

9. طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب،
مطبوعات جامعة الكويت، 1994م.

10. الجيلالي دالاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية،
الجزائر، 1992م.

11. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا
الشرق، المغرب، دط، 2006.

12. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،
ط1، 1998م.

13. حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي ((عناصر استقصاء نظري))، مجلة عالم الفكر، الكويت،
ع1، يوليو، سبتمبر، 2001.

14. محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان، وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم
الفكر، الكويت، ع2، يناير، مارس، 2000م.